٢ - رحلة الى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ سامح الخالدى

ولما وصلنا ، ألقينا لديهم عصا التسيار ، وفى ثانى يوم الإقامة عندهم ، حال توالى رؤيتنا برهم ورفدهم ، قصدت زيارة سيدى سبلان . وممن مشى فى الركاب جمع من الأحباب منهم محمد سعيد السلفيتى ، وتوجهنا صحبتهم إلى (سمسم) وبعد الغدا سرنا إلى (صفد) وزرنا ابن حبيب والمغارة ، وختمنا الربعة الشريفة ، وتغدينا عند قاضيها إسماعيل افندى ، ذى الوثبة المنيفة ، ودعانا واليها للعشا ، وسرنا منها قبيل العشا ، وقطعنا (الخيط) صحبة أولاد مراد ، وودعناهم عند (عين الذهب) الفائقة عين العسل ، وسرنا إلى خان (حاصبية) ومنه أتينا (أكام) وسرنا إلى قرية (راس العين) فرأيناها منتزها يسر الخاطر والقلب والعين ، وبتنا عند رجلها الشيخ محمد ، واجتمعنا فيها برجل مصرى يسمى بالشيخ على ، له فضيلة فى العلم بها مُلى ، وفى الصباح بعد وداع رب المنزل والضيف ، سرنا كأنا نسير فى وادى عوف . وعندما وصلنا (المزة) نزلنا بساحة حلوة ، ووردت علينا أحباب أعزة ، منهم الصهر النبيل الشيخ إسماعيل ، وابن العم ذو الوفا الملا مصطفى ، والصديق صاحب الأحوال السمان الشيخ عبد الرحمن السمان ، وغيرهم من أعيان ، ونزلت لدى الصهر المحترم من أجل الأخت وأولادها الحرم ، وبقية الجماعة فى دار قريبة منا ، وورد كثير أحباب للسلام ، حتى حبست فى البيت عدة أيام ، وبعد أن أقام الحاج حسن أياما ، وأخذ ما يحتاج إليه من الهدية تماما ، وزار الصالحية ورجالها ، وقصد أعيانها وأبطالها ، طلب الإذن بالعود الأحمد ، وتوجه ، فحرك السواكن يوم وداعه ، وتوجه صحبته الشيخ أحمد الباقانى والأخ الحاج سلامة الراميني [1] والأخ الراعى للمهد الحاج حسن الجماعيلى والحاج محمد الكفرعينى وبعد توجههم إلى البلاد ، بهدية للبيت والأولاد ، اجتمعت بالوزير المشير جناب سليمان باشا [2] ، ذو القدر الخطير ، وكنت سمعت الخاص والعام يثنون عليه بحسن الالتئام مع أهل الشام ، فأكرم بما لا مزيد عليه من إكرام . حباه الله مزيد الإنعام

« وممن اجتمع بنا المحب الأمجد الذكى محمد جلبى بن مكى ، وأنشقنا مع حسن أدبه عرفه الزكى ، ومشى أمامنا يوم وداع المستور الأكرم المكى ، وقام فى خدمتنا وهو المشار إليه أتم قيام ، بلغنا كل مراد ومرام

« وفى اليوم الثانى من شهر ربيع الأول ، توجهنا بعد وداع أهل وأحباب إلى (حرستى) مع الصهر المحترم وجمع من الأحبة ، ثم رجع الصهر وسرنا إلى (دومة) القرية المعلومة ، وتنا فى دار واسعة الأكناف مع إخواننا الكرام الأشراف ، وفى الساعة السادسة ودعنا ابن العم الملا مصطفى ، والأخ الأمجد الشيخ محمد السفارينى [3] والصديق الأوحد الشيخ أحمد نجل الشيخ محمد بن شيخنا الشيخ عبد الجليل نجل شيخنا الشيخ أحمد أبى المواهب الحنبلى وغيرهم سائرين إلى (القطيفة) ثم سرنا منها إلى (النبك) ذات الحبك والسبك ، وأنشدت بعد ما ذكرت الشيخ على النبكى :

ولما أن أتيت لأرض نبك غدت عينى من الإبعاد تبكى

ومنها أتينا خان (حسية) العامر الآهل بعمره ذى الرأى الثاقب ، ومنها سرنا إلى مدينة حمص وزرت رجالها من الخارج ، كالمدتين السابقتين ، وقرأت الفاتحة لسيدى خالد بن الوليد ، وورد على تاجر يسمى بالسيد عبد الرحيم ، وطلب الاندراج فى سلك أهل الرحيم ، وآخر يقال له الحاج باكير وكان أرسل لى كتابا أودع فيه أساطير ، وطلب الإجازة والانتماء للفقير ، فأجبته ، وأنا راج لى وله التعمير ، وسرنا منها إلى حمى (حماة) ولما رأيت سورها المقول فى قلب لفظه المأنوس ، سور حماة بها

---

(١) نسبة الى قرية من أعمال قضاء طولكرم ، خرج منها كثير من علماء الحنابلة والقضاة فى القرون الثامنة والتاسعة والعاشرة جاء ذكرهم فى شذرات الذهب ، ولقد نزحوا الى دمشق ونشروا المذهب الحنبلى هناك

(٢) كان واليا للشام سنة (١١٤٥-١١٤٧ هـ)-١٧٣٢-١٧٣٤م ولقد ترجمه المرادى ٤ - ١٩٤

(٣) سفارين قرية من أعمال طولكرم ، ترجم له ولوالده المرادى . ولقد أتى المرادى عليه وكان حنبليا وله تآليف كثيرة منها شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ، ومسارج الأنوار فى سيرة المختار فى مجلدين الخ . توفى سنة (١١٨٨ هـ) راجع المرادى ج ٤ - ٣١

عروس ، شهدت من بعيد أحبابا لهم ود أكيد عرفت منهم صهر الصهر السيد عبد الرحيم المقيلي ، ذى الشراب السلسبيلي وغيره من أصحاب ، أعرفهم من دار الصهر المهاب ، ثم تتابع استقبال أخيار ، من أعيان تلك الديار ، وأنزلنا المشار إليه فى داره والرفاق ، وأغدق الإكرام أى إغداق ، وممن حضرنا فاضل على ، وفاضل على ، يدعى بالشيخ على ، وطلب تحصيل النسبة ، مع جماعة لهم فى الفضل رتبة ، فأجبناهم لذلك ، راجين لنا ولهم سلوك أحسن المسالك ، وكتبوا الأوراد والفصائد الابتهالية ، وأخذ بها ما يقارب العشرين من الأنفس الذكية ، وخرج لوداعنا إخواننا الكرام ، منحهم الله وافر سافر المرام ، وسرنا إلى (قلعة المضيق) وهان على من بعد قطع كل مضيق ؛ ومنها أتينا (الشغر) الذى امتلأ بالناس وما شغر ، ولصدر نازله بالأمن شرح فسا وفر ، ثم سرنا إلى (الزنبق) وفى الأثناء ذكرت من فى الديار بق ، وتذكرت قول المصونة علما ، قرة العين ، قبل توجهى عنها بيومين ، متى يا أبى تذهب ؟ فقلت بعد غد والقلب بتلهب ، فأسندت رأسها إلى الحائط القبلى ، وأجرت دموعا تضنى المحب وتبلى ، فتيتها بقرب الرجوع ، فلم يفدها غير سكب الدموع ، بل قالت مرادك تخليني وتروح ، وأنت أنة مستهام مجروح ، وذكرت أخاها ، عندما رقيته حناها ، وشقيقتها النفيسة نفيسة ، وبكاها يوم الوداع بأشواق رسيسة ، وأتواق كبيسة ، فأبدى التذكار ، سحاب دمع حار ،

على العاصى فى بلاد النصيرية :

« ونصبت لنا خيمة على كتف نهر العاصى ، فانحطنا ببسط دان غير قاصى ، وسرحت طرف فى زيتون تلك القرايا ، التى أهلها على المذهب النصيرى ، وقبل أن جمعنا العشائين على مذهب الإمام ابن إدريس ، تحركت الرفاق إلى انطاكية بوجد رسيس

فى أنطاكية :

« ثم أنا جمعنا وسرنا ، وإليها على أجنحة الخيل طرنا ، ورأينا قبل الوصول سورها الخراب ، الغير للألباب ، ولكنه كاد يساوى التراب . وبعد أن استقر بنا المقام على جانب العاصى ، رأيت ناعورة تبكى بصوت حزين ، دائرة على قلبها تجرى عليه الدمع الحزين ، فأشجانى وأبكانى بكاها . وزرت من البعد سيدى حبيب النجار ، وكتبت للأخ الأمجد الحلبى ، الشيخ محمد بن أحمد المكتبى ، كتابا مختصرا على الإخبار بوصول أنطاكية . وصورته « بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على حبيب أسيافه للأعداء ناكية ، وبعد فنضم الأخ الكريم قلب السلام والتكريم ، أنا وصلنا بالسلامة أنطاكية ، نهار الثلاثاء الثالث عشر من شهر المولد الذى طيب عرفه الأطياب حاكية ، فأحببنا إعلامكم بذلك كيما يتوجه بالدعا كل خدن محبة لقيس لبنى محاكية ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

ودخلنا بها الحمام الجندى ، واشتريت فرسا حمرا ، لكى أطفى من متعب السرجى جمرا ، ورحلنا لنحو (بيلان) التى عقبتها أم فيلان ، وحصل يومها لطف صحبته سلامة لولاه ، لأهلنا التراب على رفيقنا الحاج سلامة فقلت :

ثم سرنا منها إلى (بالياس) بعد ضيق يلقى ببحر الاياس
وسبقنا لها بجمع من الركب وفى خانها شربت بطامى
ثم منها سرنا (لقرط قلاق) فأصاب الفؤاد حد احتباس
(ولسيس) قد توجه وجه الجسم يسعى كما ينال شرب كامى
ولنسق من نهر جيحون كوبا مذهبا مذهبا هضام رامى
واصطحبنا يوم الدخول إليها بمحب فى العلم والفضل آمى
أحمد الاسم أحمد الوصف قد حط لدى أحمد الأنام المرامى
آخذ من أعلام شام كرام حافظ للحواس والأنفاس
خص قربا ممن يحب وشربا وكذاك الأحباب قوى وناسى

فى أورنة والأناضول فى طريق الحج الى استنبول (الآستانة) وار السعادة

« ثم دخلنا فى الصباح (أدنة) ولم نخف منع حاة سدنة ، لأن ركب الحاج ، أمنوا من أعوان الحجاج ، وطرقنا بها يوما ، فاسترحنا إقامة ونوما ، ثم قطعنا الشاقط الساقط ، بعد جهد بالأسانا يقط ، وأتينا (الياپلا) أى النجمة بوزن الدقمة ، طلب الكلأ فى موضعه ، تقول منه انتجع فلان فلانا أى يطلب معروفه ، والمنتجع بفتح الجيم المنزل فى طلب الكلأ ، ويقال أربعوا أى أقاموا فى الربيع ، وأربع إبله فى مكان كذا أى رعاها فى الربيع ، فوجدنا من النصب الشديد ما ليس عليه مزيد ، وقطعنا من العقاب ، ما جمع كل عقاب ، وسرنا منها إلى

(خانين) تقابلا بعد قطع مخاضات أربعين ، لا تكاد تقطع لفرط شقة وعنا ، لولا أن المعين يمين ، وصعدنا منها جبلا لا ينتهى صعودا إلى الجوزا من غير سلم ، وعقبه هبطات مزعجة جدا تهبط حيل نازلها ولكن الله سلم ، إلى أن وصلنا (أولى قشلة) فاقشعلنا بالنزول لديها أى نشلة ، ثم منها توجهنا بلا مهلة ، إلى مدينة (أركلة) ونزلنا لدى ماء خرار ، فتذكرنا الشام الكثيرة الأنهار ، وأقمنا بها للراحة ، إذ للسكارين بها عادة استراحة ، ولولا اعتناؤهم بهذه الإقامات ، ما بلغت دوابهم دور السلامات ، وليس فى هذا الطريق راضة كطريق الحاج ، وبه وعد كثير يدهدك الأبراج. وفى يوم الأحد ورد من أهل البلد، من لهم على الجدل جلد، برد جلدهم عليه وحسنه الخلد ، ظنا أنه يدنى دار الخلد من لأرضه أخلد ، ينتمون إلى الزادلية (٤) ، ويعظمون النكير على الصوفية ، يسند عليه لا يعتمد ، فأظهر أحدهم ميلا ما به عند، فتكلمنا معه بما التهم الأحد ، ورأيت الكلام مع أهل الخصام كالكلام ينكى القلب والجسد ، ومع أهل الاستسلام فكالقند الأملد ، ثم سرنا إلى (قره تبار) أى النبع الأسود ، ومنها إلى (أصمل) بجد دون قرار ، ومنها إلى (قونية) بلدة الملاختكار، وزرناه وجلسنا فى المقابلة ، فحظينا بإمدادات مسبلة للسابلين ، وإنعامات مختصة بكل قابل وقابلة، وسرنا إلى (اللادق) فأصابنا ريح بارد صادق ، ونبه أن هذا الطريق فى الصيف يرده ينكى ، ففى الشتاء عن وصفه أيها المعبر لا تحكى ، مرشدا لى إياك والسير فى أكنافى ، إلا إن كان فى الصيف الصافى . وسرنا إلى (العين ذات القبلوجة) (٥) ومنها أتينا (آق شهر) (٦) على خيول مسروجة ، ومنها أممنا (بلاوضون) ومررنا على جسرها الطويل الذى يرون ، وقبيل غيبوبة قر ، سرنا إلى بياض بليل أظلم بعد ما أخذ ، ومنها إلى (خان الوزير) ومنه إلى (السيد غازى) ذى المقر الخطير ، ومنه إلى (اسكى شهر) من أهلها لهم فى السدقة مهارة أمرها شهر ، وكتبت منها كتابا للصهر ، وكذلك كتابا للولد محمد كمال الدين ، ومنها لم نزل نسير الأرض فى طولها والعرض، ونقطع طول القفار ، إلى أن وصلنا (اسكدار) فتلقانا بها أحباب أخيار

فى مدرسة شمى باشا :

ونزلونا مدرسة شمى باشا (٧) ، وانتعش القلب بالراحة من الأفكار انتعاشا ، واجتمعت بجناب المحب الأوحد ، المفرد السيد محمد الاسعد ، وكتبت منها للصهر كتابا ، وآخر للولد ، وكتابا للأخ الحاج حسن بن مقلد (الجيوسى) وآخر لمحمد جلبى مكى زادة ، صدرته بـ :

سلام من ديار الروم يهدى لخدن حبه أهدى وأهدى

فى دعوة ابن عم الشيخ :

« ولما وصلنا (اسكدار) أقمنا من يوم الأحد إلى الخميس ، وكان دعانا ابن العم الرئيس ، إلى داره للتأنيس ، فسرنا إليها ذلك اليوم النفيس ، وبعد أن أقمنا عنده أيام الضيافة ، وشربنا فى حانته صرف السلافة ، أتينا بإشارته مدرسته ، وكان أراد أن يدخلنا حوزته ، فلم نجبه لحب فى العزلة المحمودة ، ورعاية الأحباب يردون على منزلتنا المقصودة ، والمدرسة منسوبة لحسن باشا المقتول (٨) ، المبنية فوق سبيله القبول ، ونحن إلى الآن فيها نرتجى حصول الوصول إلى حومل القبول والدخول ، ثم يطلب الشيخ من محمد جلبى مكى زاده فى ختام كتابه « أن يسدى أجزل تحية لسدة قدوة عمدة عدة الوزراء الفخام (أى سليمان باشا العظم والى الشام، من تثنى عليه ألسنة قلوب ملئت من لطفه بالغرام ، حميد الذكر والشيم الكرام ، عند الخاص والعام ، من أرباب السؤدد والاحترام ، الوحيد الهمام ، والفريد المقدام ، من نرجو له دوام خدمة بيت الله الحرام ، ليحيى الدارس فى تلك الطلول والآكام، وينشئ ما يحوز به الإكرام من السلام فى دار السلام ، ويجدد ما يحتاج إليه الحاج فينال الأجر التام ، ويحوط أراضى الشام ، ويسعى فى عمارها ورفع جور الحكام ، لهم على الظلم إقدام

الكلام بقية

سامح الخالدى

---

(٤) الزادلية هم طائفة تنتسب إلى شيخ زادة المشهور بقاضى زادة وقد ترجم فى الشقائق النعمانية . وهم ينكرون رفع الصوت عند الرسول ويقولون بهدم قبور الأولياء ويعتبرون من أخصام الصوفية

(٥) أى المياه الحارة الساخنة التى تنبع من الأرض

(٦) أى البلدة البيضاء

(٧) فى عمق مدرسة بهذا الاسم (المرادى ٣ — ٢١